

أسطورة التكوين من القصة الميثولوجية إلى الديانات السماوية

هجيرة لعور

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تعد أسطورة التكوين، أو أسطورة الخلق أساس معتقد البشر. فقد أعمل الإنسان فكره الساذج للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بخلق الكون ونشأة الأصول. وكانت قصص التكوين حقيقة تفسر بها كل جماعة سبب وجودها على هذه البسيطة. تفرعت إلى مجموعة من الأساطير تسمى "مظاهر أسطورة التكوين". ومن أبرز قصص التكوين أو الخلق، قصة الخليقة السومرية، وقصة الخليقة المصرية، وصولاً إلى قصة الخليقة التوراتية وقصة الخليقة المسيحية، وأخيراً قصة الخليقة القرآنية التي تعتبر الحقيقة المطلقة.

الكلمات المفتاحية: أسطورة التكوين، سومرية، مصرية، توراتية، مسيحية، قرآنية.

**Le mythe de la genèse:
du récit mythologique aux religions monothéistes**

Résumé

Le mythe de la genèse ou de la création est la base d'une croyance humaine, puisque l'homme a imaginé depuis longtemps des histoires avec son esprit simple pour trouver des réponses aux problèmes liés à la création de l'univers. Parmi ses mythes, l'histoire de la genèse sumérienne, celle des Égyptiens, celle des Hébreux, celle des chrétiens et celle des musulmans, qui est considérée comme représentant la vérité absolue.

Mots-clés: Mythe de la genèse, sumérien, égyptien, hébreu, chrétien, coranique.

**The myth of Genesis:
From Mythological Tales to Monotheistic Religions**

Abstract

The pupose of the article is to explain that the myth of the origin or creation is the basis of human belief; since man invented long stories with his simple mind to find answers to issues related to the creation of the universe. Among the myths of the Sumerian story genesis, the Egyptian, the Hebrew, the Christians and the Muslims, which is supposed to represent the absolute truth.

Key words: Myth of the origin, Sumerian, Egyptian, Hebrew, Christian, koranic.

مقدمة

تعد أسطورة التكوين، أو أسطورة الخلق أو قصة الخليقة أو نشأة الكون أساس معتقد البشر منذ الرجل البدائي الأول، الذي أعمل فكره الساذج للإجابة على الأسئلة المتعلقة بخلق الكون، ونشأة الأصول. فكانت قصص التكوين التي اتفقت عليها كل جماعة، وجعلتها حقيقة تفسر بها سبب وجودها على هذه البسيطة. فكانت بالتالي قصة الخليقة التي اجتهد العقل البشري بما أوتي لصياغة مراحلها التكوينية. ومن أبرزها قصة الخليقة السومرية وقصة الخليقة المصرية، وصولاً إلى قصة الخليقة التوراتية وقصة الخليقة المسيحية، لتختتم بقصة الخليقة القرآنية، التي أنزلت من لدن العزيز القدير، ولم يمسه التحريف الذي مس غيرها من قصص الخليقة (التوراتية والمسيحية)، فكانت هي الحقيقة المطلقة.

لقد توالى قصص التكوين، من قصص وثنية إلى قصص توحيد الله، فبدأت كل قصة تتلاشى بمجيء القصة الأخرى وصولاً إلى القصة القرآنية الخالدة. وحين نعرض هذه القصص المتعاقبة زمانياً من خلال الدراسة المقارنة لها، نحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي نجدها تفرض نفسها أثناء البحث في أساطير التكوين: كيف ظهرت أساطير التكوين للوجود؟ وكيف احتلت تلك القداسة؟ ومن أبدعها؟ وهل تمر كل أساطير الخلق - باعتبارها تاريخاً مقدساً - عبر المراحل نفسها أم تختلف من قصة خلق إلى أخرى؟ وقد كان المنهج الأنسب لمثل هذه الدراسة هو المنهج المقارن.

يرى بعض الباحثين، وعلى رأسهم دارس الأسطورة وعلم الأديان "فراس السواح"، أن الأسطورة، باعتبارها تاريخاً مقدساً، كشفت عن ثلاث مراحل مرت بها عملية الخلق "يمكننا تمييز ثلاث مراحل في التاريخ الذي تكشف عنه الأسطورة:

1- السرمدية السابقة على فعالية الألوهة.

2- الزمن الكوزموغوني، أي زمن الخلق والتكوين.

3- زمن الأصول والتنظيم⁽¹⁾.

وسنرى فيما يأتي مدى تدرج أساطير التكوين عبر هذه المراحل.

قصة الخلق السومرية:

تعد قصة الخلق السومرية من أقدم الأساطير المدونة في ثقافات الشرق القديم، والتي تتحدث عن خلق العالم من الغمر المائي. وقد وجدت هذه القصة متفرقة. ولكن بعد جمعها ودراستها أعطت ما يأتي⁽²⁾:

1- في البدء كانت الإلهة ((نمو)) ولا أحد معها. وهي المياه الأولى التي انبثقت عنها كل شيء.

2- أنجبت الإلهة نمو ولداً وبناتاً. الأول ((آن)) إله السماء الذكر، والثانية ((كي)) إلهة الأرض المؤنثة، وكانا ملتصقين مع بعضهما، وغير منفصلين عن أمهما نمو.

3- ثم إن ((آن)) تزوج ((كي)) فأنجبا بكرهما ((إنليل)) إله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

4- إنليل الإله الشاب النشيط لم يطق ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة بإبعاد أبيه عن أمه كي. رفع الأول فصار سماء، وبسط الثانية فصارت أرضاً، ومضى يرتع بينهما.

5- ولكن إنليل كان يعيش في ظلام دامس. فأنجب إنليل ابنه نانا إله القمر، فبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

6- ((نانا)) إله القمر أنجب بعد ذلك ((أوتو)) إله الشمس الذي بزّه في الضياء.

7- بعد أن أبعدت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافئ، قام إنليل، مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

وقد قام مرسيا إلياد بإعادة قراءة هذا النص الأسطوري بلغة علمية حديثة، لإظهار منطقها المتماسك، وها هي الملاحظات العلمية التي قادت إليها هذه القراءة⁽³⁾:

- 1- في البدء لم تكن موجودة سوى المياه التي صدر عنها كل شيء وكل حياة.
- 2- في وسط هذه الحياة الأولى ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل قوته هي السماء، وقاعدته هي الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء، العنصر المادي الثالث بعد المياه والتراب.
- 3- من الصفات الأساسية لهذا العنصر الجديد، التمدد. ويتمدد هذه المادة الغازية، تباعدت السماء عن الأرض.
- 4- لم يكن القمر السابح في الهواء إلا نتاجا للهواء وابنا له، وربما كان من العنصر نفسه أيضا. أما الشمس فهي الابن الذي فاق أباه القمر قوة، وخلفه على عرش السماء فيما بعد.
- 5- بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض، وغمرت أشعة الشمس الدافئة وجه البسيطة، تهيأت الشروط اللازمة للحياة، فظهرت النباتات والحيوان، وتم خلق الإنسان.

فقصة الخلق السومرية كان مطلعها الغمر المائي، الذي يرسخ فكرة الميلاد المائي. وهذه الفكرة كانت هي سمة الفكر الأسطوري للعديد من الحضارات "فكرة الميلاد المائي تتكرر فيما بعد في الأساطير البابلية التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى ((تعامه)) المقابلة لـ((نمو)) السومرية. وفي الأسطورة السومرية نجد ((يم)) المياه الأولى، وقد انتصر عليه الإله بعل وشرع بعد انتصاره بتنظيم العالم. وفي الأسطورة المصرية كان رع أول إله يخرج من المياه الأولى، وهو الذي أنجب فيما بعد بقية الآلهة"⁽⁴⁾.

نلاحظ أن ما ركزت عليه قصة الخلق السومرية الاهتمام بمسائل الأصول والتكوين، حيث لم تول اهتماما كبيرا للمرحلة الأولى - السردية السابقة على فعاليات الألوهة - ولم تهتم كثيرا بالزمن الكوسمولوجوني، وإنما ركزت اهتمامها على زمن الأصول والتنظيم، حيث حددت كيفية نشأة الجبال وكيفية خلق السماء والأرض، وتباعدتهما عن بعضهما البعض، وكيفية خلق الهواء ثم القمر والشمس وبعدها النباتات والحيوان، وحين استقر كل شيء في مكانه وأصبحت الأرض مهيأة بهوائها ونباتها وحيوانها، جاء خلق الإنسان الذي وجد كل ما يساعده على الحياة والاستمرارية: "إن الميثولوجيا السومرية تتوقف بشكل مطول عند فعاليات الآلهة في مطالع التاريخ في الأزمان الميثولوجية التي تلت الزمن الكوزمولوجوني، وقيامها بتنظيم شؤون العالم والمجتمع الإنساني"⁽⁵⁾.

هذا، ولم يهتم صانعو قصص الخلق الأولى بتقديم الدلائل والبراهين على ما جاء فيها بل همهم الأكبر هو خلق توازن بين العقل والروح لتقوية العقائد في النفوس.

قصة الخلق المصرية:

وحين نعرض لقصة الخلق المصرية نجدها تختلف كثيرا في مراحلها التكوينية عن سابقتها السومرية، حيث

تدرجت عبر المراحل الثلاث للتاريخ المقدس، ابتداء من الغمر المائي الذي تتولد منه كسابقتها السومرية. وتتجلى مراحل التاريخ المقدس "من السرمدية إلى الزمن الكوزموغوني إلى زمن الأصول والتنظيم في مطالع التاريخ. تتمثل السرمدية في الأوقيانوس البدئي (نون) فوق هذه المياه البدئية كانت تحوم روح لا شكل لها ولا هوية، ثم تركزت في داخل هذه الروح تدريجيا كل أشكال الوجود، وصار اسمها (أتوم). والاسم في اللغة المصرية يعني العدم، ويعني في الوقت نفسه الاكتمال. وفي لحظة معينة انبثق أتوم من هذه الهيولى الأولى وتجلت تحت اسم (رع) ومعه ابتداء الزمن الكوزموغوني. فقد أنجب رع توأمين هما الهواء (شو) والرطوبة (تفوت). وأنجب هذان الزوجان بدورهما السماء (نوت) والأرض (حيب). ومن زواج السماء والأرض ولد (أوزوريس) و (إيزيس) و (سيت) . مع الانتهاء من الزمن الكوزموغوني، ندخل زمن الأصول الذي يلعب فيه الإله أوزيريس الدور الرئيسي. كان ((أوزيريس)) أول ملك في الأرض. وقد كرس نفسه منذ البداية لتنظيم شؤون العالم مبتدئا مهمته في مصر⁽⁶⁾.

وقصة الخلق هذه كان يؤمن بها أهل مصر القدامى وبالتحديد سكان هليوبوليس، وتسرّد قصة الإله (رع) "أنه كان يقبع في قصر فخم.. هنا في هذا القصر.. كانت تجري قصة الحياة.. يفتح رع إله الشمس عينيه، فيبزع الفجر على الوجود. وينهض من فراشه ليدلف إلى الحمام يستحم بالماء البارد. وتقبل عليه ((أنوبيس)) إلهة الندى فتصب عليه أباريقها الأربعة الطاهرة، وينطلق ((حورس)) فيدلك جسده. وينحني ((توت)) فيجفف ساقيه. وما يكاد الجميع ينتهي، حتى يرتدي الإله الأكبر ملابسه المتألّنة ذات البريق. وينطلق ومن أمامه الرسل تتسابق لإخلاء الطريق، ومن حوله جنود الموكب ينحنون حتى تلامس جباههم غبار الأرض. ويصل الإله إلى زورقه العلوي الراسي على ضفة النهر - فيستقبله منزلقا به على الأمواه، بلا مجداف ولا شراع ولا دفة.. ويطلع النهار فيهتف الناس والآلهة على الضفتين: " تباركت يا رع.. يا خالق السموات والأرض.. يا مرسى الجبال وساقى البحار.. يا رسول الفرح والحرارة والضوء إلى أرض السلام". ومن الشرق، تبدأ دورة كل يوم، لتنتهي بعد ذلك في الغرب، حيث يختفي موكب رع في ظلمات الأفق، فتظلم الأرض. وتضيء ظلمات العالم السفلي.. إقليم الجحيم الرابض في الأعماق. وهناك، يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق واديا يتفرع إلى اثني عشر فرعا، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران هائلة ذات أبواب ضخمة.. وتجري رحلة الليل كما تجري كل يوم. وتمر الساعات هادئة طوالا والإله لا يزال يسير، حتى يلج الباب الذي يصل إلى حدائق ((أبالو))، حيث يرقد رقدة قصيرة في قصره الكبير.. ما أسرع ما ينهض بعدها ليبزع الفجر، وتبدأ إشراقه يوم جديد..⁽⁷⁾.

تجسد هذه القصة المعزى الحقيقي.. من اختراع أساطير الخلق من لدن الإنسان، ذلك أنه يبحث عن تسمية حقيقية للأشياء المحيطة به. ويبحث عن الله ومحاولة منه فهم نفسه بنفسه بفهم ما يحيط به من عوالم. في بحثه الدائم عن علاقة الكون بالآلهة وعلاقته هو بالآلهة. ومن ثم علاقته هو بنفسه وما يكتنفها من ثنائيات ضدية مثل (الموت والحياة) و (الحب والكراهة) و (العدل والعلم)... وغيرها.

قصة الخلق التوراتية:

نجد في التوراة قصة مفصلة عن الخلق، تبدأ بفكرة المياه الأولى، وهي كما نلاحظ تعد عاملا مشتركا بينها وبين قصتي الخلق السابقتين، السومرية والمصرية حيث تبدأ قصة الخلق التوراتية في العهد القديم بما جاء في سفر التكوين: " في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله

يرف على وجه المياه. وقال الله: "ليكن نور"، فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهرا، والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء وكان صباح يوما واحدا.

وقال الله: "ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه". فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء. وكان صباح يوما ثانيا.

وقال الله: "لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة الأرض، ومجتمع المياه دعاها بحارا. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: "لتنبت الأرض عشا وبقلا يبزر بزرا، وشجرا ذا ثمر يعمل ثمر كجنسه، بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا.

وقال الله: "لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنوارا في جلد السماء لتتير على الأرض" وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتتير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يوما رابعا.

وقال الله: "لتقض المياه زحافات ذات أنفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء". فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وبارك الله قائلا: "أثمري وأكثري واملئي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض". وكان مساء وكان صباح يوما خامسا.

وقال الله: "لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها: بهائم ودبابات ووحوش الأرض كأجناسها". وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: "تعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض". فخلق الله الإنسان على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: "أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض". وقال الله: "إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاما". وكان كذلك. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح يوما سادسا.

فأكملت السموات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقده، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا. هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات. كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض، وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل شيء⁽⁸⁾.

مما سبق نستخلص أن هنالك تشابها كبيرا بين ما جاء في قصة الخلق التوراتية وقصص الخلق السومرية والبالية والمصرية، وقد أكد الدارسون أنها - أي التوراة - متشابهة كثيرا مع تراث الحضارات السابقة، حيث "إن كل الدراسات والبحوث تدل بصورة قاطعة لا تقبل الشك أن كثيرا من موادها مستقى بصورة رئيسية من تراث وثقافة وادي الرافدين بالدرجة الأولى، ومن تراث وثقافة وأساطير البابليين والكنعانيين، ومن ثقافة وتراث وادي النيل"⁽⁹⁾.

وكسابقاتها من قصص الخلق اتخذت قصة الخلق التوراتية مسار التاريخ المقدس نفسه، حيث مرت بالمراحل الثلاث للتاريخ المقدس، ابتداء من المرحلة السرمدية، مروراً بالزمن الكوسموغوني، وصولاً إلى زمن الأصول والتنظيم، حيث "ترسم الميثولوجيا التوراتية صورة للسرمدية السابقة على التكوين.. ففي البدء لم يكن سوى لجة ماء وظلمة وروح الرب يرف فوق سطح الغمر (التكوين 1:1-2). ثم تقرر الآلهة الخروج من حالة الكمون هذه فتُظهر نفسها من خلال خلق مظاهر الكون الذي يكتمل في خمسة أيام. وفي اليوم السادس يقوم الإله الذي وعى نفسه الآن من خلال الكون الذي صدر عنه، بخلق الإنسان.. وهكذا ظهر الإنسان، وكان خلقه بمثابة آخر الفعاليات المبدعة للألوهة في الزمن الكوسموغوني والزمن التاريخي. بعد ذلك تبدأ فعاليات الألوهة في زمن الأصول وبدايات التاريخ"⁽¹⁰⁾.

هذا، ولا عجب أن نجد بعض التفاصيل في قصة الخليقة التوراتية مشابهة بل تكاد تكون منقولة حرفياً عن التراث العربي. كآدم وحواء، والملائكة... وغيرها. وطبعاً، فقد حذف اليهود كل ما لا يؤسس للجنس اليهودي. وأبقوا على ما يعزّز مقصدهم.

قصة الخلق المسيحية:

لم تبدأ أسطورة التكوين المسيحية بفكرة الغمر المائي كالأساطير السابقة، وإنما بدأت بالكلمة التي هي الله، فقد جاء في بشارة يوحنا في الإنجيل (العهد الجديد): في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هو في البدء كان عند الله. به كان كل شيء، وبغيره ما كان شيء بما كان. فيه كانت الحياة، وحياته كانت نور الناس. والنور يشرق في الظلمة، والظلمة لا تقوى عليه. ظهر رسول من الله اسمه يوحنا. جاء يشهد للنور حتى يؤمن الناس على يده. ما كان هو النور بل شاهداً للنور. الكلمة هو النور الحق، جاء في العالم لينير كل إنسان. وكان في العالم وبه كان العالم... أما الذين قبلوه، المؤمنون باسمه، فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله، وهم الذين ولدوا لا من دم ولا من رغبة جسد ولا من رغبة رجل، بل من الله. والكلمة صار بشراً وعاش بيننا"⁽¹¹⁾.

نستشف مراحل التاريخ المقدس في الأساطير المسيحية ابتداءً بالمرحلة السرمدية التي كانت فيها الألوهة منضوية على ثلاثة كيانات إلهية، هي الأب والابن والروح القدس.

وتتدرج قصة الخلق المسيحية، لتتزل سلم التكوين الإلهي المقدس مرحلة تلو الأخرى ف "في غياهب السرمدية، كانت الألوهة منكفئة على ذاتها، ومنضوية على ثلاثة كيانات إلهية، هي الأب والابن والروح القدس. وبقدر ما كانت هذه الكيانات مستقلة عن بعضها، بقدر ما كانت متحدة في الجوهر مشكّلة كلاً لا ينقسم هو الإله السرمدي الواحد. ومنذ الأزل كان الابن يتولد على الدوام من الأب، والروح القدس يصدر عن كليهما.. حتى جاء وقت قرر فيه الله أن يظهر إلى الوجود أول أشكال خلقه. فصدر أمر الكلمة. ونشأ عن أمر الكلمة صنف من المخلوقات الخالدة هم الملائكة.. بعد ذلك، تستمر خطة الخلق انطلاقاً من الماء، وهو أول ظهور مادي غير متمايز. فمن الماء صنع الله السماء والأرض وبقية مظاهر الكون والطبيعة في ستة أيام انتهت بخلق الإنسان. أخذ الخالق حفنة من تراب الأرض وصنع منها آدم على صورته ثم نفخ في أنفه نسمة حياة. فكان نموذجاً للإنسان الكامل الذي أراده خالقه.. وجاء إليه بكل ما دب على الأرض أو يطير في السماء أو يسبح في الماء، فعرضهم أمامه صنفاً صنفاً، فأعطى آدم لكل صنف اسمه"⁽¹²⁾.

والمتمتع في مثل هذه القصة لابد أن يقر بأن هذه الأساطير صيغت انطلاقاً من معرفة سابقة عرفتها البشرية في حقبة من الحقب، عن طريق الأنبياء لا محالة. ولكنها حُرِّفَت ونزحت عن سياقها الديني الصحيح. وبقيت تحتفظ بملامح الخلق الظاهرة.

قصة الخليقة القرآنية:

تعد قصة الخليقة أو التكوين القرآنية هي القصة الحقيقية التي لا تشوبها شائبة. وهي المرآة التي تعكس بوضوح تشوهات وتحريفات وانزياحات قصص الخلق التي سبقتها -على الرغم من أنها حقيقية عند معتقديها - ونوردها هاهنا لمعرفة قصة الخلق الحقيقية بكل مراحلها، وأيضاً للتأكيد على أن ما احتوته الكتب السماوية (العهد القديم والعهد الجديد) ما هو إلا قصص أسطورية كسابقتها من قصص الخلق التي سلمت بها الجماعة منذ محاولة الإنسان الأول إعطاء تفسير للظواهر والأشياء المحيطة به في الكون كله.

هذا، ولم تأت قصة الخليقة في القرآن الكريم متواصلة، كسابقاتها في الديانات الأولى، بل جاءت متفرقة؛ حيث لم يقدم لنا القرآن الكريم وصفاً مكتملاً عن كيفية الخلق في موضع واحد، بل تفرقت الآيات الدالة على ذلك. فمنها ما جاء في السور التالية: سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأنعام، وسورة طه، وسورة الأنبياء وسورة السجدة، وسورة الزمر، وسورة طه، وسورة الأنبياء، وسورة النبأ، وسورة النازعات وغيرها ...

وقد جاءت في مجملها آيات تتحدث عن خلق الكون، لكنها مرتبطة بأمور دنيوية في الغالب، مثل (الكفر بالله خالق السموات والأرض وموسع أسباب الرزق)، من مثل ما جاء في سورة فصلت، في قوله تعالى: ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين فسواهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمراً وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [سورة فصلت: الآيات 9 - 12].

وحين كان الخوض في مثل هذه المسائل المتصلة بالقرآن الكريم - خاصة منها قصة الخليقة - ليس بالأمر اليسير، بات من الضروري الاطلاع عليها عند متخصصين، لهذا سأعتمد على ما جاء عند ابن كثير عن قصة الخليقة القرآنية، حيث قدمها معتمداً على النص القرآني حيناً والحديث النبوي حيناً آخر.

جاء في قصة الخلق لابن كثير " وفي حديث عمران بن حصين كما سيأتي " كان الله ولم يكن قبله شيء وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض". وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو يعلى بن عطاء عن وكيع بن حذس عن عمه أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي أنه قال: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض. قال: "كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ثم خلق عرشه على الماء..." أيها الخلق أولاً فقال قائلون خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن غريب والذي عليه الجمهور فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره أن العرش مخلوق قبل ذلك، وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، حيث قال: حدثني أبو الطاهر

أحمد بن عمرو بن السرج حدثنا ابن وهب أخبرني أبو هانئ الخولاني عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء"⁽¹³⁾ فقصة الخليقة القرآنية تبدأ بمرحلة السرمديّة، فالله موجود منذ الأزل، منذ البدء لا شيء قبله "الأزليّ القديم الذي لم يزل موجودا بصفات الكمال ولا يزال دائما مستمرا باقيا سرمديا بلا انقضاء ولا انفصال ولا زوال"⁽¹⁴⁾.

فكان الله ولم يكن قبله شيء لقول الرسول الكريم "كان الله ولم يكن شيء قبله"⁽¹⁵⁾. وخلق تعالى عرشه على الماء، فكان الغمر المائي حاضرا، منذ قصص التكوين الأولى، في عملية الخلق والبدايات.

وقد خلق الله الماء قبل كل شيء، ثم خلق بعده العرش وفي هذا تختلف الروايات، حيث هناك رواية أخرى تقضي بأن الله أول ما خلق الماء ثم خلق بعده النور والظلمة وهناك روايات أخرى مختلفة "فسألوه - أي النبي صلى الله عليه وسلم - عن ابتداء خلق السموات والأرض ولهذا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فأجابهم عما سألوهم فقط - ذكر العرش على الماء فقط - ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزين المتقدم. قال ابن جرير وقال آخرون بل خلق الله عز وجل الماء قبل العرش رواه السدي عن أبي مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء، وحكى ابن جرير عن محمد بن إسحاق أنه قال أول ما خلق الله عز وجل النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلا أسود مظلمًا وجعل النور نهارًا مضيئًا مبصرًا قال ابن جرير، وقد قيل إن الذي خلق ربنا بعد القلم الكرسي ثم خلق بعد الكرسي العرش ثم خلق بعد ذلك الهواء والظلمة ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء والله سبحانه وتعالى أعلم"⁽¹⁶⁾.

وجاءت كلمة العرش في القرآن الكريم في عدة آيات نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾⁽¹⁷⁾.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾⁽¹⁸⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁹⁾.

فالله استوى على العرش، الذي يحمله الملائكة وهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا. وأما الكرسي فقد ذكر في سورة البقرة. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾⁽²⁰⁾.

والكرسي يسع السموات والأرض، واختلفت الروايات في سعته "وقال السدي عن أبي مال الكرسي تحت العرش وقال السدي السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي في العرش. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: "لو أن السموات والأرض بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كان في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة المفازة، وقال جرير حدثني يونس حدثنا ابن وهب قال قال ابن زيد حدثني أبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس". قال

وقال أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما الكرسي في العرش إلا كحلفة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة في الأرض " (21).

هذا، وأما اللوح المحفوظ، فهو الذي سطر فيه القلم عن خلق ورزق وممات وحياة وعزٍ وذُلٍ بني آدم وأكثر من هذا " قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعزُّ ويذلُّ ويفعل ما يشاء " (22).

بعدها خلق الله السموات والأرض، وكان خلقهما في ستة أيام، لقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ (23). وقوله كذلك: ﴿خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ (24). وقد جاء خلق السموات والأرض في الكثير من المواضع، نضيف إلى ما سبق، قوله تعالى: ﴿قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ففاضهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ (25). ويقول ابن كثير في خلق السموات والأرض " فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالأساس للبناء " (26). وهذا المعنى واضح أكثر في قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ (27). ثم فصل الله بين الأرض والسماء في قوله: ﴿والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا، وبنينا فوقكم سبعا شدادا، وجعلنا سراجا وهاجا﴾ (28). وفي قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (29).

وهنا تفصيل لخلق الله تعالى للرياح والأمطار، وتفجير للعيون والأنهار: "أي فصلنا ما بين السماء والأرض حتى هبت الرياح ونزلت الأمطار، وجرت العيون والأنهار وانتعش الحيوان ثم قال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون أي عما خُلق فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والنجوم الزاهرات والأجرام النيرات وما في ذلك من الدلالات على حكمة خالق الأرض والسموات " (30).

فعلى الإنسان التدبر في ملكوت الله الذي خلق كل شيء بحسبان لا يقدر على مقدرة خلقه أحد. قال تعالى: ﴿أنتم أشدُّ خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغشش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاه، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم﴾ (31).

وهكذا نتبعنا مراحل التكوين الإلهي في الديانة الإسلامية. هذا الخلق العظيم الذي تجلت فيه وحدانية الله وتقوده بالربوبية وقدرته على الخلق وأنه على كل شيء قدير. وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن مراحل الخلق " كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض " (32).

لقد ظهر الإنسان على هذه البسيطة مُحاطا بمظاهر طبيعية مختلفة، وظواهر طبيعية مخيفة. فتوالت الأسئلة في ذهنه الساذج الذي لا يحتكم إلى العلمية. وكان يجيب على هذه الأسئلة ليحس بالراحة والطمأنينة إزاء ما يحيط به.

وكانت الأسئلة الأكثر إلحاحا هي محاولة البحث عن الله الخالق والمؤسس لكل هذا وذاك. فكانت قصة الخليفة أو ميثولوجيا التكوين التي اتفقت عليها الجماعة وحفظتها وقدرتها وجعلتها هي سبب وعلة وجودها واستمرارها في الحياة، وتشابهت أساطير التكوين منذ الأزل وصولا إلى قصة الخليفة التوراتية، وقصة الخليفة المسيحية لما حل بهما من تلاعب مخيال الراوي السارد والمدون. لكن قصة الخليفة الإسلامية تبقى هي المقياس الوحيد للوصول إلى قصة الخليفة الحقيقية عقديا وعلميا.

وأول ما نلاحظه على قصص الخليفة المختلفة أنها مرت جميعا بالمرحلة الثلاث للتاريخ المقدس. الذي يسرد لنا كيفية تجلي الآلهة، ثم يكشف عن فعاليات الكائنات الماورائية في الأزمان الميثولوجية، وما ينشأ عنها في عالم الإنسان. لكن تختلف كل مرحلة من المراحل إلى أخرى، ومن قصة خليفة إلى أخرى. فنجد أن قصة الخلق السومرية ركزت على المرحلة الثالثة، مرحلة فعاليات الآلهة في مطالع التاريخ، وقيامها بتنظيم شؤون العالم، وتمر مرور الكرام على المرحلتين السابقتين، أما قصة الخلق المصرية، فقد برزت فيها المراحل التكوينية الثلاث، مرحلة تلوي الأخرى، وكانت في كل مرحلة تسرد لنا الأحداث بالتفصيل. أما قصة الخلق التوراتية فهي الأخرى سردت لنا تفاصيل المراحل الثلاث بالتفصيل وكان لكل مرحلة أهميتها في الميثولوجيا التوراتية. وأخيرا تأتي قصة الخلق المسيحية، التي تتابع فيها التكوين عبر الخطوات الثلاث، ولكنها ركزت أكثر على مرحلة السرمدية حيث كانت الألوهة متمثلة في ثلاثة كيانات إلهية.

لقد أجهد الرجل البدائي نفسه كثيرا في السعي وراء معرفة سر الكون، ومعرفة من هو القائم على هذا التكوين، وأيضا كيف قام هذا الإله بخلق من سواه من الآلهة الثانويين، وكيف تم له خلق كافة معالم الكون من سماء وأرض وجبال وهواء وأمطار.. وإنسان والذي جعله سيدا على الأرض يزرع ويجني، ويتقرب إلى الطبيعة الغاضبة فيرضيها، ويقهر الشر وينصر الخير.

خاتمة

وختاماً لما سبق، وبعد أن تصفحنا قصص الخلق المختلفة ابتداء بقصة الخليفة السومرية ثم قصة الخليفة المصرية وبعدها قصة الخليفة التوراتية وصولا إلى قصة الخليفة المسيحية، نخلص إلى جملة من النتائج، المتعلقة بأسطورة التكوين من القصة الميثولوجية إلى الديانات السماوية. وهي:

- 1- التوق إلى معرفة أصول الكون هو أساس أساطير التكوين.
- 2- الحاجة إلى معرفة الله . الخالق الأول . هي التي أبدعت لنا أساطير التكوين.
- 3- إن فعل التكوين الذي منح العالم وجوده، هو الذي يُخرج الألوهة من مرحلة السرمدية إلى مرحلة الوجود عينه.
- 4- إن الزمن الكوسموغوني هو الزمن الذي يخرج فيه الإله من السرمدية بفعل الخلق إلى الوجود ثم إلى تنظيم الأصول، وهنا ندخل الزمن الخطي (التاريخي).

5- قصة الخلق الإسلامية هي الأصل وهي الحقيقة وهي المنزهة عن كل عملية مقارنة مع أساطير التكوين جميعاً.

الهوامش:

- 1- فراس السواح، الأسطورة والمعنى . دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط2، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق. سوريا، 2001، ص92.
- 2- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرافدين، ط13، دار علاء الدين، سوريا. دمشق، 2002، ص: 32، 33.
- 3- المرجع نفسه، ص: 33.
- 4- المرجع نفسه، ص: 35.
- 5- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 97، مرجع سابق.
- 6- المرجع نفسه، ص: 99.
- 7- سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة . مصر، 2002، ص: 28 و 29.
- 8- العهد القديم، سفر التكوين (1 : 2 : 43.2.1) ، الكتاب المقدس، أي كتاب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار الثاني، ط1، 2003.
- 9- إبراهيم ناصر، التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية . سوريا، 2005، ص: 10.
- 10- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 101.
- 11- العهد الجديد، إنجيل يوحنا 1: 1 . 14، الإنجيل (العهد الجديد) l'évangile (nouveau testament) ، دور الكتب المقدسة في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، بيروت 2003.
- 12- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 105 و 106.
- 13- ابن كثير، قصة الخلق، إعداد: عصام سيد، مكتبة النافذة، ط1، الجزيرة، مصر، 2003، ص: 07 و 08.
- 14- المرجع نفسه، ص: 03.
- 15- المرجع نفسه، ص: 08.
- 16- المرجع نفسه، ص: 08 و 09.
- 17- سورة غافر، الآية: 15.
- 18- سورة طه، الآية: 05.
- 19- سورة الزمر، الآية: 75.
- 20- سورة البقرة ، الآية 255.
- 21- ابن كثير، قصة الخلق، ص: 16.
- 22- المرجع نفسه، ص: 18.
- 23- سورة الأنعام، الآية: 01.
- 24- سورة السجدة، الآية: 04.
- 25- سورة فصلت ، الآيات: 09، 10، 11، 12.
- 26- ابن كثير، قصة الخلق، ص: 20.
- 27- سورة غافر، الآية: 64.
- 28- سورة النبأ، الآيات: 07، 08، 09، 10، 11، 12، 13.
- 30- ابن كثير، قصة الخلق، ص: 20.

31- سورة النازعات، الآيات: 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33.

32- ابن كثير، قصة الخلق، ص: 21.

المراجع:

- 1- إبراهيم ناصر، التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية. سوريا، 2005.
- 2- سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة. مصر، 2002.
- سوريا، 2005، ص: 10
- 3- فراس السواح، الأسطورة والمعنى. دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط2، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق، 2001.
- 4- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سوريا، أرض الرافدين، ط 13، دار علاء الدين، دمشق، 2002.
- 5- ابن كثير، قصة الخلق، إعداد: عصام سيد، مكتبة النافذة، ط1، الجيزة، مصر، 2003.
- 6- العهد القديم، الكتاب المقدس، أي كتاب العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار الثاني، ط1، 2003.
- 7- العهد الجديد، الإنجيل (العهد الجديد) l'évangile (nouveau testament)، دور الكتب المقدسة في الشرق الأوسط، جمعية الكتاب المقدس في لبنان، بيروت 2003.